قصـــــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفلك

ذهب البكباشى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء فى جزيرة كوبا إلى الولايات المتحدة بدعوة من السلطات . وبقى مساعداه كارول ولازار فى كوبا . أما كارول فطلب إلى لازار أن يسلط عليه بعوضة سبق أن شربت من دم مريض بالحمى ، ففعل ، ومرض كارول بالحمى ثم اشتفى . ثم وقعت بعوضة وبيئه اتفاقاً على ذراع لازار وهو يدور فى عنابر المرضى فمرض بالحمى ومات

— ٤ —

وعاد ريد من الولايات إلى كوبا ، فرحب به كارول ترحيباً حارًّا . وحزن ريد للازار وفرح للتجربتين اللتين نجحتا فى إعطاء الحمى إلى كارول وإلى س . ص . وجفف مدامعه على لازار ورأى فى القدر الذى وقع به يدَ الله التى لا غالب لها ، ولم يفته أن يرى فيه ظاهرة للعلم أيضاً . كتب ريد : « إن لازار قرصته بعوضة وهو فى عنابر الحمى الصفراء بالمستشفى ، فلا أقلّ من الاقرار بجواز أن هذه البعوضة تلوثت بالحمى الصفراء من مريض ، وإذن فحادث لازار وقع اعتباطاً ولكنه لم يضع سدى ... »

قال ريد : « والآن جاء دورى أنا لأذوق البعوض دمى » . ولكنه كان بلغ الخمسين من عمره فأرادوا تخزيله فقال لهم : « ولكن لابد من البرهان » . وتُنصِتُ إلى صوته الموسيقى فتجده لطيفاً خافتاً . وتنظر إلى وجهه فلا تجد لذقنه هذا البروز الذى يكون للفتوّة والرجولة القوية . وتجمع هذا وهذا فتكاد تحسب أن ريد كان فى الذى قال مترددا هيّابا . ووالله لو حسبت ذلك ما شانه ، وكيف يَشينه وهو واحد من ثلاثة مات أولهم من غير شك ووُرِىَ التراب يقيناً

قال ذلك الصوت اللطيف الناعم : « ولكن لابد من برهان » . وقام ريدُ صاحب هذا الصوت اللطيف الناعم إلى الجنرال ليونارد وُود Leonard wood ، وحمل إليه الأخبار كلها وما تضمنته من أحداث مؤثرة . وكان وُود أقل الرجال تحمّشاً . فاستمع ماسمع حتى أذن لريد أن يفعل مايشاء وأن يذهب إلى أى حد شاء . وأعطاه مالاً ليقيم معسكراً من سبع خيام وبيتين صغيرين ، حتى قناة العَلَم أعطاه ثمنها . وأحسن من هذا كله أنه أعطاه مالاً يشترى به رجالا يقامرون فى تلك التجارب بأرواحهم فيسلكون بها سبيلاً تهلك فيها على الأقل نفسٌ من كل خمس فلا تعود الى الوجود لتستمتع بالثمن الذى دُفع فيها . فشكر ريد الجنرال ، وخرج عن كيمادوس حتى إذا بعد عنها ميلاً نصب على الأرض سبع خيام ، ونشر العلم الأمريكى فوقها ، وأسمى المعسكر معسكر لازار — ولُنهتف ثلاثاً لذكرى لازار . وستعرف بعد قليل أى أعمال مجيدة وقعت فى هذا المكان

ليس آكد فى الحقائق من الحقيقة الآتية : كل صائد من كِبار صُيّاد المكروب يختلف اختلافاً بيناً عن كل صائد آخر منهم ، ولكنهم جميعاً تجمعهم صفة واحدة : أنهم جميعاً مبتكرون ، إلا ريد . ولكنه لا يستأهل الشنق لأنه لم يبتكر ، لأن عذره حاضر ، فأمر البعوض والقُرّاد وغيره من ناقلات المكروب كان حديثا شائعا على ألسن البحاث فى عشر السنوات الأخيرة من القرن الماضى ، فلم يكن لريد مندوحة عن سماعه واقتباسه . وإن فاته الابتكار فى هذا ، فوالله ما فاته أن يسود البحّاث جميعا بقوة خُلُقه . وإلى جانب هذا كان مجرّبا متقناً محسنا . ووسوس إليه خُلُقه الصلْب القويم : « لا بد من قتل الناس لخلاص الناس » ، فقام يرسم سلسلة من اختبارات مُحكَمة هى أسوأ ما ابتدعه رجلٌ خيّرٌ من الجرائم

وكان ريد رجلاً يحب الاتقان والاحسان فى الأعمال ، فقضى بأن كل رجل يُراد قرصه ببعوضة يصير حبسه قبل قرصه أياماً وأسابيع فى هذا المعسكر تحت شمسه المحرقة حتى يكون بمعزل عن أى عدوى بالحمى الصفراء تأتى من غير هذه البعوضة ، فلا بد أن تكون التجارب مسدودة الثقوب محكمة لا يخرّ الماء منها . وأعلن ريد فى الجند الأمريكى أن الحرب لم تضع أوزارها بعد[1] ، وأن حرباً جديدة أُعلنت لخلاص الانسان . وسأل هل فيكم متطوعون ؟ ولم يكد يجف مداد الاعلان حتى دخل

(١) يقصد الحرب بين الاسبانيين والولايات المتحدة التى قامت فى كوبا كما قدمنا . وكانت انتهت عندئذ

إليه فى مكتبه جندى يُدعى كيسنجر Kessenger من أُهيُو Ohio [1] ، ودخل معه رجل آخر يُدعى جون موران John J. Moran ، وحتى هذا لم يكن جندياً بل كاتباً ملكيًّا يعمل فى مكتب الجنرال فِتْز هيُو لِى Fitzhugh Lee ، دخلا عليه مكتبه فقالا : « جئنا أيها السيد لتجرّب فينا » . وكان ريد رجلاً ظاهر الذمّة حىّ الضمير ، فسألهما هل أدركا كل الادراك ما أقدما عليه من المخاطر ، وأخبرهما خبر الصداع الذى يجيئهما ، والتهوّع الذى يأتيهما ، والقىء الأسود الذى يقيئان . وذكر لهما ما كان من وافدات جائحة لم تُبق من الرجال على رجل واحد ليعود فيحكى خبرها ويدُلّ على فظائعها

فأجاب الرجلان : « نعلم ذلك ، وإنما جئنا تطوّعاً واختياراً فى سبيل العلم والانسانية وحدهما » . عندئذ أخبرهما ريد بما كان من كرم الجنرال وُدّ ، وذكر لهما أن من تعضه البعوضة سيكون له مائتا ريال قد تُزاد إلى ثلثمائة . فقال الرجلان : « نحن إنما تطوعنا على ألا نأخذ عن تطوّعنا أجراً » ، فانتفض ريد على قدميه ورفع يده بالسلام إلى قبعته ، وهو البكباشىّ ، وقال لهما : « أيها السيدان الكريمان ، لكما تحيتى ! »

وفى نفس هذا اليوم دخل الاثنان الحجر العسكرىّ ليتجهزا فيه ليصيرا بمثابة خنزيرين غينيين للتجريب على أحسن ما تكون الخنازير ، فلا تدخل إليهما لوثة ولا تتطرّق إليهما ريبة . وفى الخامس من ديسمبر استضاف كيسنجر خمس بعوضات شربت من دمه حتى تروّت ، وكانت اثنتان منها قد شربتا منذ خمسة عشر يوماً وتسعة عشر يوماً من دم مرضى هلكوا بالحمى . ولم تمض عليه غير خمسة أيام حتى جاءه صداع يكاد يَصْدَع رأسه ، ومضى يومان آخران فأخذ يصفرّ لونه ، وتعاقبت عليه أعراض المرض كما يجب أن تكون . ثم تعافى فحمد الله ريدُ على هذا الشفاء

ثم جاء المجد يسعى إلى ريد وصاحبيه كارول وأجرمنتى . وإن يكن الدهر لم يسعفهم ، بمعنى أن الشبان الأمريكيين لم يزدحموا عليهم للتطوع ازدحاماً ويدوسوهم فى سبيله دوساً ويرموا بحياتهم رمياً فى سبيل العلم والانسانية ، فقد بعث الدهر إليهم رجالاً أسبانيين جاؤا كوبا حديثا من أسبانيا ، وكانوا غاية فى الجهالة ، وكان لهم مأرب فى المائتى ريال ؛ فتقدم خمسة من هؤلاء طمعاً فى المال . ولنسمّهم المهاجرين الأسبان ، أولعل الأوفق أن أسميهم بالأرقام ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ كما يسمى صيادو الكروب حيواناتهم التجريبية فيقولون الأرنب رقم ١ والأرنب رقم ٢ وهلم جرا . وعلى كل حال تقدم هؤلاء الخمسة ، فلما تهيأوا للقاء البعوض عضهم عضات هى أخطر فى المتوسط من رصاص البنادق ، واستحقوا المال الذى أخذوه ، فان أربعة منهم جاءتهم الحمى الصفراء على أبين ما تجىء وبأظهر ما تكون من الأعراض ، أو كما يقول بعض الأطباء إذا هم لبسوا جِلْد العلماء : « بأجل ما تكون الأعراض » وهذا نصر مبين ! نصر لا يأتيه الشك من أىّ جهاته ؛ فأن أحداً من هؤلاء الرجال لم يقترب يوماً من حيث يكون الوباء ، وأُخِذُوا فعوملوا معاملة الخنازير الغينية والفئران والأرانب التجريبية فحبسوا طويلاً فى كِيادُوس فى خيمات مستورة لا يصنعون شيئاً ولا يرون أحداً ، ولم تحدث لهم أحداث إلا شكّات فى أجسادهم شكّتهم إياها إناث البعوض المقلّمة ظهورها بالفضة . وكان الضجر لا شك قاتلهم لو لا أنهم كانوا جهالاً مُغرقين فلم يكن بينهم وبين الحيوان فارق مبين

كتب ريد إلى زوجته يقول : « افرحى معى يا حبيبتى ، فانك لو استثنيت لقاح الدفتريا وبثلة السل التى اكتشفها كوخ ، فهذا الكشف العلمى الذى وجدناه سيُرْوَى للأحفاد بأنه أكبر كشف حدث فى القرن التاسع عشر ... »

لم يكن ريد فى السبيل التى اتخذها مبتكراً ، ولكن دقته هذه بلغت حداً تنهض به إلى طبقة المبتكرين ، فهو لا شك مبتكر فى دقته ، وقد كان فى مقدوره أن يقف من بحثه عند هذا الحد ، بل لعلك مقسمٌ أن قد سوّلت له نفسه الوقوف عند هذا الحد ، ولِمَ لا وهؤلاء ثمانيةٌ جاءتهم الحمى من قرصات البعوض ؟

ألا أىّ حظ هذا الذى صحب ريدَ فلم يمت من رجاله الثمانية غير واحد ؟

على أن ريد لم يقف عند هذا الحد ، وأخذ يتساءل : « .... ولكن أيجوز أن تُنقَل الحمى عن طريق غير البعوض ؟ »

واعتقد الناس أجمع أن ملابس الموتى من الحمى وأفرشتهم وكل ما يمتلكون يحمل الموت فى طياته ، فأحرقوا من أجل ذلك من الأفرشة والملابس ما بلغت قيمته ملايين الدولارات . وارتأى هذا الرأى رئيس الأطباء ، وارتآه كل طبيب له اسمٌ فى أمريكا شمالها وجنوبها وأوسطها إلا الشيخ المخبول فِنْلى . وتشكك فيه ريد . وبينا هو فى سرور من نجاحه فى عدوى

(١) مدينة بالولايات المتحدة

كيسنجر والأسبانيين المهاجرين جاء النجارون فنصبوا بيتين صغيرين دميمين فى معسكر لازار . وكان البيت الأول أقبح البيتين ، طوله أربع عشرة قدما فى عشرين عرضا . وكان له بابان فى مدخله ، نُصِبَ أحدهما فى حذقٍ خلف الآخر حتى لا يُفلِتَ منه البعوض . وكان له نافذتان تطلان على الجنوب فُتِحا والباب فى حائط واحد حتى لا يجرى فى هواء البيت تيار . ووُضع فى البيت موقدٌ لطيف ليرفع حرارته بعيداً فوق الدرجة الثانية والثلاثين المئوية ، ووُضِع فيه براميل مليئة بالماء ليتشبع منه الهواء فيصبح بحرّه ومائه خانقاً كبطن سفينة ببعض مناطق الاستواء . وكان فى هذا كفاية لهذا البيت من كرب وضيق ، ولكن جاء الثالث عشر من نوفبر عام ١٩٠٠ فحمل جند إليه وهم يتصببون عرقاً عدداً من صناديق محكمة التسمير متّهمة المنظر جاءت من عنابر الحمى الصفراء لتجعل من هذا البيت مثلاً يُضرب فى اللعنة والشؤم . . .

فلما أدبر نهار هذا اليوم وخيّم ليله شهد ريدُ وكارول مشهدا من خير مشاهد الشجاعة والتضحية ، ففى هذا البيت اللعين الأول دخل دكتور أمريكى شاب يدعى كوك ، ودخل معه جنديان أمريكيان (ليت شعرى ماذا عوّق الناسَ فلم تنصب لهؤلاء الأبطال تماثيل الأبطال) يُدعَى أحدهم فوك Folk ويدعى الآخر جرنجان Jernegan

وفتح هؤلاء الرجال الثلاثة هذه الصناديق المحكمة المريبة داخل هذا البيت فى جو رطب متلزّج تضيق فيه الأنفاس

أُف لها من رائحة كريهة ! ولعنوا وسبّوا وسدّوا أنوفهم واستمروا يفتحون الصناديق . فأخرجوا منها وسائد عليها القىء الأسود لقوم ماتوا بالحمى . وأخرجوا منها مُلاءات أسرةٍ وألحفةٍ تلوّث بما يخرج من المريض إذا غاب حسه وهمدت قوته وضاع تحكّمه فى جسمه . وأخذوا يضربون الوسائد وينفضون الملاءات والألحفة ، فقد كان ريد قال لهم : « لابد أن تُعفّروا جو هذه الحجرة بالوباء وتنشروه جيداً بين أرجائها » . وقاموا يهيئون لأنفسهم من هذا المتاع فراشا على أسرة صغيرة من أسرة الجيش . وخلعوا ملابسهم ورقدوا على هذه الفُرُش القذرة وحاولوا النوم فى تلك الحجرة الملعونة . . . وأقام ريد وكارول على هذه الحجرة يحوطانها بالرعاية ويحاذران خشية أن تدخلها بعوضة تائهة . أما طعام فوك وكوك وجرنجان فلا تسل عنه فقد كان لا شك أطيب طعام

وتوالت الليالى وثلاثتهم فى هذا البيت راقدون ، ولعلهم كانوا يفكرون فيما صنع الله بأرواح من سبقوهم إلى هذه اللاءات وهذه الألحفة ، أو لعلكم كانوا يفكرون هل من سبيل غير البعوض تنتقل به الحمى . . . ثم جاء ريد ، وهو رجل يجمع إلى طهارة ذمته شدة دقته ؛ وجاء كارول ، وهو رجل كالح عبوس ؛ جاء كلاهما يزيدان تجربتهما إحكاماً على إحكام . فحملا معهما صناديق أخرى وردت من عنابر الحمى الصفراء ، فلما فضّها فوك وكوك وجرنجان فزعوا إلى خارج البيت عجزاً عن احتمالها ولكنهم عادوا ورقدوا ، وناموا . . .

وقضوا على هذا عشرين ليلة ! فأين ذكراهم لا تُخلَّد ، ولمَ صنيعهم لَمْ يُمجّد ! ثم نُقلوا وعُزِلوا وحدهم فى خيمة طلقة الهواء وانتظروا أن تأتيهم الحمى : ولكنها لم تأتهم ، وزادوا وزناً وصحّوا أجساماً وقرقموا بالنُّكات على البيت القذر الذى شرفوه ، وعلى ألحفته وملاءاته التى تلفعُوا بها فيه . ولما جاءتهم الأخبار بأن كيسنجر والاسبانيين أصابتهم الحمى ضحكوا ملء أشداقهم كتلاميذ المدارس أنْ تكون الحمى جابت هذه الأجسام الكبيرة من عضة بعوضة صغيرة

قد يعجبك هذا البرهان إعجابا شديدا ، ولكن أى تجربة فظيعة تلك التى ساقت اليه ، على أنه لم يكف ريد فلم يَرْضه عِلْمه ولم تقتنع به نُوَتَتُه

فأعاد الكرة ، فأدخل إلى تلك الحجرة ثلاثة آخرين من شباب أمريكا ، وجاءهم بمُلاءات وألحفة جديدة القذر جديدة البَشَع وعلى هذه أنامهم عشرين ليلة ؛ وأراد أن يزيد فى رفاهيتهم فأنامهم فى نفس الأقمصة التى مات فيها المصابون

ثم عاد بعد ذلك فأدخل ثلاثة شبان أمريكيين آخرين فى نفس هذا البيت ، وأرقدهم فيه عشرين ليلة على نفس الأسلوب مع فرق بسيط زاد التجربة دقة : ذلك أن غطّى وسائدهم بقُوَط أُشربت قبل ذلك من دماء رجال ماتوا بالحمى

وبرغم كل هذا بقى كل هؤلاء الرجال التسعة أصحاء فلم تنلهم مَسّة ولو خفيفة من الحمى . قال ريد : « ما أعجب العلم ؟ » . وكتب : « إن الأسطورة الكاذبة التى تقول بأن الملابس تنقل الحمى الصفراء قد انفقأت كما تنفقأ فقاعة تخبزُها بدبوس » . ولقد صدق ريد ، فما أعجب العلم حقا ! ولكن كذلك